# الغربة والحنين عند الطلبة الجزائريين بالخارج في فترة الثورة المسلحة

## (من خلال ثلاثة شعراء)

الدكتور يحي الشيخ صالح
جامعة قسنطينة

إن الحديث عن الطلبة الجزائريين الذين كانوا يزاولون دراساتهم بالخارج إبان الثورة المسلحة (1954 - 1962) ليس حديثا عن مجموعة صغيرة كما قد يتبادر إلى الذهن بل هو تناول لآلاف من الجزائريين الذين اختلفت البلدان التي عاشوا فيها، من عربية إلى أوروبية إلى أمريكية(1)... واتفقوا في هدفهم من وجودهم فيها، وهو طلب العلم في البدايةثم في استمرارهم في البقاء بها حتى انتهاء الثورة، لسبب واحد أيضا، وهو ملاحقة السلطات الإستعمارية لهم، وإلقاء القبض عليهم بمجرد وصولهم إلى حدود الجزائر.

لقد كان موقف السلطات الإستعمارية من الطلبة عند إندلاع الثورة، وحتى تاريخ 19 ماي 1956 يختلف من واحد إلى آخر، تبعا لاختلاف نشاطهم السياسي والثوري، لكن بعد إعلان الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين موقفهم المساند للثورة، وبعد دخولهم في إضراب عن الدراسة غيرت تلك السلطات نظرتهم إليهم، أو بالأحرى «عمقتها، فأصبحت صفة الطالب مرادفة لصفة الثائر أو الخارج عن القانون، واصدرت أوامرها بإلقاء القبض عليهم بدون تمييز أو تحديد، كما تفعل تماما مع المجاهدين وحاملي السلاح، الشيء الذي جعل جل أولئك الطلبة يفضل البقاء خارج الجزائر، بعد أن أكدت لهم الوقائع والأحداث ومناشير الإستعمار أن المصير المحتوم للمتوجه منهم إلى الجزائر ليس المنازل والدور، ومراتع الصبا، في أحضان الأهل والأحبة بل هو السجون والمعتقلات في أحضان زبانية الإستعمار وجلادية وأساليبهم الجهنمية في التعذيب والتنكيل...

كان لهذا البقاء خارج الجزائر مدة طويلة (أكثر من سبع سنوات) نتائج كثيرة في أكثر من ميدان تقتصر على متابعتها بالنسبة لهذا النص - في المجال النفسي الشعوري، ومن خلال النص الشعري، حيث أصبح أولئك الطلبة- بمرور الأيام والسنين- يشعرون بتنامي ضغوط الغربة وحياة التشرد على نفوسهم ، ويعانون من القلق وعدم الإستقرار، ويجدون في قلوبهم شعورا

---

(1) توزعون كما يلي: 560 طالبا بتونس، 100 في المغرب الأقصى، و100 في مصر، و170 في بلدان اوروبا الغربية وأمريكا، 65 في سورية، و65 في بغداد، و30 في الكويت إلى جانب أعداد أخرى في الأردن وروسيا وأوروبا الشرقية، أنظر المجاهد (ع53، 1958/12/8) وكذلك د. يحي بوعزيز - مجلة الثقافة (ع 1984/83)

بالشوق والحنين إلى الأهل والوطن، مافتىء يتجدد ويحتد حتى تحول إلى كابوس خانق، يغذيه ما يبغلهم من أخبار اضطهاد الإستعمار للجزائريين في الوطن، وتعرض أسرهم وذويهم إلى ويلات القمع والوحشية، والتنكيل والتقتيل...

النموذج أو العينة التي اخترناها لدراسة هذا الجانب هي مجموعة من الطلبة الشعراء الذين توافرت فيهم جميع مواصفات الطالب الجزائري بالخارج آنذاك، وتمتعوا -إلى جانب ذلك- بموهبة شعرية أتاحت لهم التعبير عن مكنونات صدورهم، ونثث مابها من شعور حاد بالغربة ومن أشواق وحنين إلى الوطن والأهل.

إن إنتقاء هذه العينة على أساس الشاعرية لا يطرح أي إشكال في تمثيل الطلبة الآخرين غير الشعراء، لأن مصدر معاناة الغربة والشعور بالشوق والحنين ليس هو الشاعرية بل ظروف البعد والتشرد التي اشترك فيها كل الطلبة الذين كانوا بالخارج آنذاك، وإذا كان للشاعرية دور هنا فهو دور التعبير والإفصاح، كما كان هذا الدور متوافرا في وسائل أخرى غير الشعر، مثل الرسائل وغيرها، مما يتطلب بحثا مستقلا.

الشعراء العينة هم صالح خرفي الذي قضى فترة الثورة في كل من تونس والقاهرة ودمشق، وأبوالقاسم خمار الذي تنقل هو الآخر -بين دمشق وتونس، وأخيرا صالح خباشة، الذي توزعت حياته وقتئذ بين تونس ودمشق، وكأن وطأة الإحساس بالغربة والحنين كانت تدفعهم إلى التنقل والأسفار بين العواصم العربية تحفيفا للقلق والتوتر لكن كانوا كمن يعالج «بالتي كانت هي الداء» مادامت أرض الجزائر ممنوعة عنهم.

الوطن ليس أرضا وكيانا معنويا فحسب، بل هو أيضا مرتع الصبا ومنبع الذكريات، إنه مأوى الأحبة والأهل والأصدقاء، لذلك تمتزج مشاعر الشوق إلى الوطن بمشاعر الشوق، إلى الأهل والأحباب، حتى لا يمكن التفريق بينهما على مستوى القصيدة، وفي هذاالمجال تبرز شخصيات معينة في النص، يحن إليها الشاعر، ويناجيها من وراء الحدود، باثا إليها شوقه وحنينه، وشاكيا همه وحزنه، لكن في بنرة متسامية واعية، تترفع عن البكاء واليأس لتتعلق بخيوط الأمل البارق المضي، وراء السحاب الأسود الكثيف.

أهم شخصية ركز عليها أولئك الشعراء هي شخصية الأم بكل ما تحمله من معاني الطهر والقداسة وأسباب الإنتماء، وبما تشكله من شبه بأرض الوطن في طهرها وقدسيتها وكونها أساس وجود الشاعر في الحياة، وبما تمثله من أهداف ينبغي التضحية في سبيلها مثل الوطن تماما.

الأم تجسد كل تلك المعاني الخالدة، لكن الشاعر البعيد عن وطنه ينظر حوله فلا يجد لأمه أثرا فيلاحق شبحها بذاكرته على امتداد آلاف الأميال، ولا يزيده ذلك إلا حنينا وشوقا، وتتعمق مأساته عندما يجد نفسه في مناسبة ما، تدعو إلى البهجة والحبور ولا يجد بجانبه أما تقاسمه السعادة والسرور، فيتحول الحبور إلى حنين جارف، ولوعة ممضة تعكر الصفو وتبدد الهناء، ويتحول العيد إلى موسم للتأثر والتألم والإنزواء، ذلك ما يحدث ابتداء للبعداء في يوم العيد، وما يشبهه من مناسبات الفرح والابتهاج.

صالح خرفي يحل عليه عيد سنة 1958 وهو بالقاهرة فيحظ مظاهر الفرحة والأنس على الناس، ويراهم يهنئون أمهاتهم ويعانقونهن، فينظر حوله ليجد نفسه وحيدا بلا أم يعانقها إلا خيالها، بالرغم من أنها لا تزال حية ترزق، فستعرض ذاكرته شريط الذكريات الحلوة وأيام الصفاء في ربوع الوطن، ثم تتأجج في قلبه لواعج الشوق والحنين:

أمي، يهنيء كل نجل أمه ويعانق
وأنا نصيبي منك يا أمي الخيال الطارق
أحيا هنا، وأنا لمرآك الوضيء مفارق(2)

إن شدة الشوق تجعل الشاعر يستعيد بذاكرته مواقف السعادة التي كان يحياها إلى جانب أمه بكل تفاصيلها ودقائقها، يقارن بينها وبين حاضره بالغربة حيث لا أحد يضفي عليه مشاعره، ولا شيء ينسيه أمه في العيد، بسمتها واستيقاظها مبكرة لتزيين البيت للزوار وإعداده للأقارب والمهنئين.

لكن يا أماه، والأيام تخطو عاثرة
أيام غربة شاعر أماله متناثرة
لم أحظ في الدنيا بمن يضفي علي مشاعره

---

(2)د. صالح خرفي - اطلس المعجزات - ط2- ش و ن ت - الجزائر 1982 ص 95.

ينسي فؤدي بسمة لك في المواسم ساحره
متى يا ترى ينسى فؤادي يقظة لك باكره
في فجر يوم العيد، والأعياد ذكرى عابره
لتزيني البيت الجميل لزائر أوزائره
والبشر يرسم في محياك الجميل بشائره (3)

مأساة الشاعر البعيد عن أمه لا تتمثل في تذكره أيام السعادة والصفاء وهو بجانبها ومقارنتها أياها بواقعه الحزين فحسب، بل تتمثل أيضا وبصورة أعمق، في تفكيره في حاضرها وكيف تعيش عيدها ذاك، وذلك عندما تذكره ثياب الأمهات المصريات الزاهية بثياب أمه التي لابد أن تكون سوداء ، وبعينيها الباكيتين، وبقلبها الخافق المعذب بابتعاد ولدها عنها في يوم كذاك إن حزن الشاعر حزن مضاعف، حزنه لابتعاده عن أمه وما أثار فيه ذلك من شعور بالألم والحنين وحزنه لعلمه أن أمه حزينة عليه:

كم ذكرتني أمهات في ثيابزاهية
أيامك السوداء ما بين الذئاب الضارية
والعيد خضب منك كفا بالدماء القانية
وتقلد الخدان لؤلؤ مقلة لك باكية
والكف ساند خافقا دقاته متتالية
تتساءلين عن إبنك المنفي، عن آلاميه(4)

عندما تشتد المواجد ويتحكم الشوق يصبح كل شيء يثير حساسية المشاعر ويعمق الآلام وحتى صديق الشاعر الذي يؤنسه في يوم العيد يصبح مثيرا لمواجده ومعاناته، وذلك عندما يهم بوداع الشاعر، ويحاول هذا الأخير استبقاءه لحظات أخرى طلبا للأنس وتخفيف الغربة لكنه مستعجل يهم باللنصراف سريعا لأن أمه ستقلق عليه إن امتد غيا به عنها لحظات أخرى الشيءالذي جعل الشاعر يقارن بين الوضعيتين في ألم ممض، أم تقلق لغياب ابنها عنها لحظات قصيرة، وأم صابرة لغيبة إبنها عنها سنوات طويلة متوالية:

---

(3)(4) المصدر السابق صفحات 96 - 98.

أمي إليك حكاية مني تجسد دائيه
كان الصديق صباح عيد الأم يعرف مابيه
والخل، ابن النيل مصري يفيض حساسيه
فمشي بجنبي ساعة، أقضي الحياة كما هيه
حتى إذا حان الوداع، وفي الوداع أنانيه
فسألته عن قصده عن سعده وشقائيه
فأجاب: أمي لا أشك بغيبتي في (داهيه)
قلقت عليه أمه لما تغيب ثانيه
وصبرت أنت لغربة سنواتها متوالية (5)

قد يكون المهرب في هذه الأفكار والهواجس هو اللجوء إلى كتابة رسالة يبث فيها الشاعر الغريب إحساسه، وينفث فيها لوعته، ويخفف بها عن أمه بعض ما تعانيه من قلق وحيرة، لكن حتى هذاالملجأ البسيط يحرم الشاعر منه، فهو يعرف أن الرسالة التي سيكتبها لن تصل إلى أمه، لأن السلطات الاستعمارية ستحتجزها:

حتى الرسالة، والرسالة قد تخفف ما بيه
حرموك يا أماه منها، إنهم لزبانيه(6)

لكن بالرغم من مأساوية الحدث واعتصاره القلوب بما يثيره من مشاعر التأثر والتألم وبالرغم من تسلل الشاعر إلى بيته وانزوائه فيه بعيدا عن هرج العيد، فإنه يبتسم ويشعر براحة تغمره لأنه يعرف جيدا أن ذلك كله ثمن التحرر والاستقلال.

رجع الصديق لأمه ورجعفت للكوخ الصغير
فلزمت بيتي يوم يترك بيته خلق كثير
وسئمت تجوال الشوارع فارتميت على السرير
لكن يا أمي بسمت، بسمت مرتاح الضمير
لما علمت بأن هذا كله ثمن المصير (7)

إنها لوحة معبرة مؤثرة عمق تأثيرها نجاح الشاعر في تصويرها بكثير

---

(5)و(6)و(7) المصدر السابق صفحات 96 - 98.

من العفوية والصدق، والحركية التي تدب في القصيدة وتشيع فيها جوا من الواقعية ناتجا عن تعانق الصور المتناقضة في مفارقة مؤلمة حزينة، من عناق الأبناء أمهاتهم وشرود الشاعر مع خيال أمه الطارق، ومن الثياب الزاهية لأمهات القاهرة وثياب أمه السوداء وعينيها الباكيتين ثم تسرع صديقه في توديعه معتذرا بلقاء أمه القلقة عليه في حين لم ير الشاعر أمه منذ سنوات... وأخيرا تلك الصورة الرائعة المعبرة بحركيتها والمتمثلة في ارتماء الشاعر على السرير وحيدا في بيته، بعدأن سئم التسكع والتجوال في الشوارع، في حين يترك الناس بيوتهم للزيارات وتبادل التهاني. إنها صورة تلخص كل مشاعر التأثر والحزن وآلام الغربة والوحدة، ولا عجب أن يذهب الدكتور محمد ناصر إلى أن هذه القصيدة من «أنجح القصائد» الثورية تصويرا للمشاعر والعواطف الذاتية، وتحقيقا «للصياغة الفنية المتلاحمة مع الموضوع»(8).

الشاعر أبو القاسم خمار لا يخاطب أمه من المنفى (دمشق) بل أباه، وإذ يخاطبه فليس لكي يناجيه مثلما فعل خرفي مع أمه، وإنما ليتحدث إليه عنه في تقمص طريف، مبعث ذلك ما رأيناه عند خرفي عندما تقمص شخصية أمه وعاش مأساتها هي نحو ابنها، وهو شدة التعلق والحنين التي تجعل المغترب يجد بعض العزاء في التعبير عن نفسه في غربتها، وأيضا في التعبير عمن يحبه ويهفو إليه في أرض الوطن في الوقت نفسه، في صورة حية حوارية يستحضر فيها البعيد، ويجرى على لسانه ما يؤجج الشوق ويعمق الحنين، ويبدو هذا التقمص، أي حديث الشاعر عن الآخرين ووصف مشاعرهم تجاهه أقوى تعبيرا عن مأساة الفراق من حديثه عن نفسه مباشرة، لأن الشعور بآلام الآخرين أصعب وأدل على التعلق بهم، وأدنى إلى التضحية ونكران الذات، يقول خمار واصفا مشاعر أبيه نحوه:

كم ذا رأيتك يا أبي  في عمر ليل متعب
بجوار بابك واقفا  تدعو لقومك كالنبي
عيناك دامعتان في  وجه حزين شاحب
ولسانك الرتال يهمس بالكتاب اليعربي (9)

(8) ينظر: د. محمد ناصر - شعر الثورة من جانبه الغني - مجلة الثقافة (ع 91/1984) وأيضا مجلة أول نوفمبر (ع :98/99/1988)
(9) أبو القاسم خمار -ربيعي الجريح- ش و ن ت - الجزائر 1971 - ص 27 - 28.

بم يهمس هذا الأب المسكين، وبم يدعو الله، إنه يطلب العزة والنصر، لكن لا يتوقف عند ذلك، بل يدعو الله أيضا أن يرحم شبيبته ويجمعه بولده الطريد الذي يعيش بلا أمل خلف الحدود:

رباه لي خلف الحدود ۞ قلب بلا أمل شرود
أتراك ترحم شيبتي ۞ وأراه يوما إذ يعود (10)

لكن الأقدار لا تعيره أذنا صاغية، فسرعان ما تتلاشى أصداء دعائه، ولا يبقى إلا الليل منتصبا يلتهم العهود يفني كل شيء، ويبقى الأب يفني يحواه وتعلقه بفلذة كبده، والإبن لا ملجأ له إلا الوعود يانس بها حينا، ويعلق عليها آمالا، لكنها لا تلقى من الظروف والأقدار إلا السخرية واللامبالاة:

وتلاشت الأصداء يا ۞ أبتي يرددها الجمود
لا شيء إلا الليل في ۞ في أعماقه تفنى العهود
وأب يموت مع الجوى ۞ وإبن يعود إلى الوعود
وجحافل الأشباح لا ۞ تنفك تهزأ بالوعود (11)

ذلك كله ما جعل الشاعر يركن إلى شيء من اليأس والإحباط (بدل الأمل الذي رأيناه عند خرفي) فلا يجيب التي تسأل عنه إلا أن يأمرها بالانصراف عنه، لأن قلبه محطم لا يتحمل لواعج الحب، وهو، أي الشاعر، لا يرجى منه شيء، إنه «شيء» في مؤخرة ركب هائم وليته كان وراء أمل ما، بل هائم وراء مأثم، يعاني الغربة، وتتقاذفه الأقدار في درب مظلم مفروش بالأشواك، ذكرياته فيها كلها حسرات، وحركاته كلها وخز وآلام:

سيري فإن السير أسلم ۞ سيري على قلبي المحطم
لا تسألين من أنا ۞ أنا صرعة الكأس المهشم
أنا آخر الأشياء في ۞ ركب يهيم وراء مأتم
متغرب بمتاهتي ۞ في نكسة تغفو تحلم
تجتاحين الأقدار في ۞ درب من الأشواك معتم
في كل ذكرى حسرة ۞ ولكل زحزحة تألم(12)

---

(10)(11)(12) المصدر نفسه ص - 28 - 29

إنها قمة اليأس والقنوط، لكنها قمة الصدق أيضا، إنها صورة خطوطها القاتمة ظروف التشرد والغوبة،وما يعشش فيها من لواعج الحنين وهواجس الخوف والضياع، صورة عبرت عنها «الصورة الشعرية» الوارفة الظلال فالتعبير مثلا عن اليأس والتيه بكون الشاعر «شيئا» وليس إنسانا وكونه آخر الأشياء ثم كونها تسير في ركب هائم ليس وراء هدف مشرق، وإنما وراء مأثم... صورة معبرة موحية عن عمق المأساة والضياع وراء الحدود.

وفي قصيدة أخرى يخاطب خمار أخته «يولا» أو «الزهراء» مسترجعا بذاكرته ساعة ودعته وودعها، متذكرا تفاصيل الموقف المؤثر عندما همت بتوديعه فخنقتها العبرة، ولم تفعل إلا بدمعة سائلة، وهي شاردة تطرح مقلتاها أكثر من سؤال:

أختاه....
يـا إسم يـجـنـنـي صـداه
يا نغمة ضـاعت وتاهت خلف آه
يا طـيـف أمـل أن أراه
إنـي تـركـتـه
قد كان يجهد أن يودعني بكلمة
فـأسـال دمـعـه
وتركته يرنو... وتسأل مقلتـاه(13)

لقد مرت على موقف الوداع ذاك ستة أعوام كاملة، كأنها زوبعة عاصفة غبارها شوك، ينخر الصدر ويؤلم، ويبقى عالقا لا يزول، إنها ست سنوات يعدها الشاعر الطالب المبعد في الغربة:

سنوات سـت يـا أخيه
مرت كزوبعة ملبدة علي
وغـبـارهـا لما يزل
كالشوك ينخر جـانبي (14)

(13)(14)المصدر السابق ص 34 - 36.

طول مدة الفراق وانقطاع الأخبار يلقي في روح الشاعر هواجس مخيفة وأفكارا سوداء، لقد كان ينادي أخته باسمها «الزهراء» عندما كان معها بالجزائر، لكن يخيل إليه وهو خارج الحدود أنها لم تعد على قيد الحياة، وأنها ماتت شهيدة الشوق والمعاناة، وتتعمق هواجسه عندما يخيل إليه أن أباه لم يعدينا ديها باسمها، وإنما يشير إلى السماء عندما يهم بندائها ويصيح يا عفراء، أي التي عفر التراب وجهها:

قد كنت أدعوها ويحلولي النداء
زهراء...
واليوم والأقدار عـــابثة عنيدة
فلعلها ذهبت على شـــوق شهيدة
وأبي إذا نادى يشير إلى السماء
ويصـــيـــح يا عـــفـــــــــــراء(15)

البعداء الجزائريون في البلدان العربية لم يكن ينقصهم أي شيء من متطلبات الحياة العادية، لقد كانوا معززين بين إخوانهم الذين آووهم وآنسوهم، وفتحوا لهم قلوبهم بفيض المحبة والإخاء والمؤازرة والوفاء، لكن ذلك كله لم يكن لينسي الغريب بلاده وأهله، وإنما أوقعه في حرج من أمره، فلم يعد يدري أيبكي الوطن البعيد، أم يمجد البلد المضيف، وأصبح نهبا لكلتا العاطفتين، تتنازعانه وتتنازعان الحضور في قصيدته، وعندما يلتقيان تصبح الواحدة مثيرا والثانية هدفا، فكرم الضيافة والإحسان يثير فيه ذكريات الأهل والأحبة، ومناظر الطبيعة الخلابة في المنفى تثير فيه ذكريات الوطن وترسم في مخيلته مناظره الجميلة، فيقف عند هذه الأخيرة متمليا متمعنا، واصفا أياها بكثير من التلهف والتعلق.

كان أبوالقاسم ضمار في حلب سنة 1955 وكان الوقت ربيعا فأخذ بجماله وهتاف حمامه، وزقزقة شحاريره وقطاه، وسره تفتح الورود وترنح الغصون فأنشد يقول:

---

(15)المصدر السابق ص 34 - 36.

هتف الحمام ورفرف الشحرور يشد و بالصفير
وتسابقت في الأفق أســـراب القطا جذلى تطير
والورد فتح ثغره للـــشمــس يبـــســـم بالعبير
وترنح الغصن الجميل فصفق الـــورد النضير(16)

لكن وقوف الشاعر أمام ربيع حلب لا يطول، إذ سرعان ما يذكره بربيع بلاده وذكرياته فيها ويحرك أشواقه الدفينة، فيستعيد أيام الصبا مع أحبته وأبناء بلدته، لذلك بدل أن يثير فيه ربيع حلب شعورا بالبهجة والمرح ويستمر في وصف فتنته الذي بدأه في المقطع السابق، إذا به يثير فيه شعورا بالشجن واللوعة والأسى:

حقا لقد هاجـــت بقـــلبي خفقة نحو الوطن
وتحرك الشوق الدفين بمهجتي يذكي المحن
وتراجعت ذكرى خيالي عـــبـــر قافلة الزمن
ذكرى الصبا وجماله ذكرى الأحبة والسكن
آه لقد حل الربيع وحل في قلبي الشجـــن (17).

الذكريات تتوالى وشريط مناظر الوطن لا ينقطع ولا يتوقف، وربيع حلب يستحضر ربيع الجزائر، بمافيه من نخيل وخمائل وفراشات جذلى، وسيول عربيدة... والأهم من ذلك هيام الشاعر هناك (في الجزائر) وتفاؤله بالدنيا، الشيء الذي يفتقده في حلب بطبيعة الحال:

أين النخيل وأين فاتيك الخمائل والسهول (18)
وفراشة الحقل المليحة حول أحضاني تجول
تسمو لتحتضن الأشعة ثم تهوي في الحقول
وأنا هناك أهيم من فرحي على دنيا تزول
حيث الطلاقة والجلال وحيث عربدة السيول (19)

غير أن ذكريات الشاعر سرعان ما تتلبد شريطها وتتجهم ومناظر ربيع الوطن تعلوها فجأة مسحة من القتامة تمنع ا [illegible] سترسال في التمتع بها والإخلاد إليها وذلك عندما يتذكر الشاعر أن تلك المرابع أصبحت مرتعا للموت، وأن

(16)(17)(18)(19) المصدر السابق ص 17 - 18.

ربيع بلاده قاحل أجرد نتيجة الحرب، وما ألحقته بغاباته من حرائق وتخريب:

أين الربيع وموطني للموت يرقص للجحيم

وربيع قومي أجرد الغابات مجروح الصميم (20)

أما الشاعر صالح خباشه الذي كان في تلك الفترة بدمشق أيضا، فينظم قصيدة يبث فيها شكواه من الغربة والبعد عن الوطن، وتألمه من الذكريات التي تركها خلفه، وتبرمه من طول ليالي الغربة ومن شتائها القارس الذي لا يفت فيه قبس من الأهل أو أي اتصال بهم يشعره بالدفء والحنان.

نأى وطني العزيز برغم أنفي ✿ وكم ذكرى عليه تركت خلفي

نأيت عن الجزائر طال عهدي ✿ كأني غبت عنها منذ ألف

فكم لي من شتاء في اغترابي ✿ ولا قبس من الأهلين يدفي (21)

إن خباشة هنا مثل خمار تماما، فهو لا تهمه مناظرالحسن ولا أماكن الاستجمام والراحة في دمشق بالرغم من روعتها، إلا بقدر ما تذكره بمثيلاتها في الجزائر، وما تثيره فيه من حنين وشوق إليها:

وكم صيف قضيت على الشواطي فما مثل الجزائر أي صيف(22)

هذا التذكر كان كافيا لجعل الشاعر يسترسل في استرجاع الذكريات ووصف المرابع والمناظر بالجزائر:

أكاليل الربى من كل صنف(23) إذا ابتسم الربيع استقبلتني

ويستمر الشاعر في ملاحقة المناظر الجزائرية الجميلة، ناسيا نفسه في سرحان وحلم يقظة ممتع ،ليستغرق في ذلك بقية القصيدة، وهي ثلاثون بيتا كاملة خصصها لوصف جمال الجزائرحتى ليخيل لقارىء القصيدة أن الشاعر نظمها عندما كان بالوطن يتملى جماله ويراه رأي العين ويبدو أن الشاعر توقع هذا من القارىء فحاول تعليله وقدم للقصيدة بقوله:

... إنه محبة الوطن والهيام بكل ما فيه، ولكن ما حيلة من اغترب عن وطنه العظيم مثل الجزائر سوى هذه الآهات الحرى يصعدها من الأعماق » (24).

كثيرا ما تمترج مشاعر الشوق والحنين عند الطلبة البعداء بشعور قاس بالوحدة والضياع، بعضهم يجتر تلك الأحاسيس ويتجرع مرارتها ثم لا

---

(20)(21)(22)(23)(24) خباشة - الروابي الحمر - ش و ن ت - الجزائر، 1971، ص 129-130

يلبث أن ينتهي به الأمر إلى تلمس خيط من الأمل في المستقبل مثلما رأينا عند صالح خرفي في يوم العيد، لكن البعض الآخر تجرفه تلك المشاعر القاسية إلي نوع من التيه، وترسم أمامه مستقبلا يغشاه الضباب ويلفه الغموض.

هذه الحالة الأخيرة نجدها عند خمار سنة 1962 وهو لا يزال بدمشق وقد يكون طول مدة البعاد سببا في نفاذ صبر الشاعر واستهلاك معنوياته، في هذه السنة نظم قصيدة يشكوفيها وحدته الخانقة وإحساسه المض بالغربة وضبابية المستقبل، بالرغم من احتضان الفيحاء إياه وعيشه فيها بصورة عادية، لقد كان فيها يحب عندما يخفق قلبه، ويبكي عندما يضيق صدره، ويغني عندما يحلو له الغناء، لكنه كان في تلك الحالات كلها منفيا غريبا وكل ما يفعله عديم الجدوى، حبه بلا نتيجة لأنه غير مستقر ولا يعرف مصيره، وغناءه لا يطرب ،لأنه ما من أحد يشاركه إحساساته، وبكاؤه لا يشفي ولا يجدي (25) لأنه لم يجلب مواسيا، ولم يخفف لوعة:

إلى أين أمضي؟ إلى وحدتي ✿ بلا حلم ليل بـــلا صاحـــب
حرام حرام دمـــــشق الهوى ✿ أعيش بواديك كالـــراهب
أحب.... ولكـــن بـــلا موعـــد ✿ وأشدو... ولكن بلا طـــارب
فأبـــكي وأبـــكي ولكـــن بلا ✿ مؤاس مع الشاعر الناحـب (26)

إنها مأساة الغريب، فمهما يجد من حرارة الاحتضان وكرم الضيافة، فإن ذلك يبقى مقتصرا على المستوى المعيشي الخارجي، أما على مستوى الوجدان والشعور فالغريب غريب مهما كان الأمر، ولا شيء يستطيع أن يجعله ينسى ويسلو، لأنه لا أحد يستطيع إدراك أبعاد مأساته وعمقها وإن حاول، لأن إدراك المعاناة يتطلب معايشتها لا مجرد معرفتها، فكيف ستقيم ذلكلم هم في وطنهم، وبين ذويهم وأهليهم.

---

(25) يقول الشاعر ابن الرومي في رثاء أحد أبنائه مخاطبا عينيه:
بكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي
أي أن البكاء يشفيه ويخفف عنه الحزن، وإن كان لا يرد إليه ولده، أما بكاء شاعرنا خمار فيبدو أنه لا يخفف عنه لوعته، لأنها قائمة متجددة، ولا يجدي لأنه لا يحقق نتيجة .
(26) صالح خباشه - الروابي الحمر - ص 71 .

هذه الوضعية القاسية تنتهي بخمار إلى إعلان صريح كان بوده ألا يبوح به، لأنه يعرف أن إعلانه لايفهم على حقيقته، وقد يعتبر نوعا من عدم العرفان بالجميل أو عدم اللياقة على الأقل، لكن لابد للشاعر الغريب من أن ينفث ما بصدره فيخاطب الشام بأنه يحبه ويهواه، ويعترف بجميله وإخائه العربي، غير أنه -أي الشاعر- في وحشته التي لم يستطع الشام تبديدها وفي تذكره وطنه البعيد... لا يملك إلا أن يحن إلى هذا الأخير ويهفو إليه، أما الشام فله منه العتاب لأنه لم يستطع أن ينسيه غربته ومأساته:

أحبك يا شام في غربتي ✿ وأهواك يا خافقي اليعربي
ولكنني اليوم في وحشتي ✿ وفي ذكر أوراسنا الغائب
أحن وأهفو إليه وأشدو لمغناك أغنية العاتب (27)

أخيرا، نلحظ أن الشوق والحنين عند الطلبة البعداء كان أقوى شعور عاشوه في الغربة المحتومة، لقدغطى على أي شعورر آخر عندهم، وران على قلوبهم لدرجة أنهم لم يعودوا يعرفون حتي الحب، تلك العاطفة القوية الجموح، لأن أي شعوروأية عاطفة تتطلب حياة القلب وانشراحه، أمّا هم فقلوبهم منقبضة، مات فيها أمل العودة إلى الوطن الحبيب وإذا مات هذا الأمل مات القلب وأصبح بلا حياة: والحب لا يحيا إذا ما مات في القلب الرجوع(28)

إن هذا البيت لخمار يلخص مشكلة هؤلاء الذين فضلوا الغربة وعذابها النفسي على السجن والاعتقال، فلا شيء ينعش نفوسهم مثل العودة إلي الوطن، وكل مأساتهم هي البعد عن الوطن لا غير.

من خلال هذه الجولة عبر ثلاثة دواوين لثلاثة شعراء ممن فرضت عليهم ظروف الثورة التحريرية وإسهامهم فيها البقاء خارج بلادهم طوال فترتها، وهي ليست بالقصيرة، نلحظ مدى تأثير البعد والتغرب في أدبهم، ومدى معاناتهم ومحنتهم، ومن خلال هذه الأخيرة نكتشف صفحة مشرقة لا تزال مطوية من صفحات ثورتنا الخالدة ،صفحة تمثل الجانب الإنساني الأصيل المفعم بأحاسيس الحب والولاء والوفاء لوطن اسمه الجزائر□

---

(27 ) صالح خباشه - الروابي الحمر - ص 72.

(28) المصدر نفسه - ص 27.